الفصل الأول

القرآن والقراءات

المبحث الأول : القرآن

أولا : تعريفه وأصل تسميته

١ – القرآن : في **اللغة** مصدر مرادف للقراءة. وقد ورد ذكره بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] ثم نقل من هذا المعنى للدلالة على كلام الله تعالى المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ، بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، للإعجاز والبيان، المنقول إلينا بالتواتر، «الجامع لمصالح العباد في الحياة وبعد المعاد»(١)، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس(٢).

ذهب بعضهم إلى أنه مصدر مشتق من قرأ، يقال : قرأه يقرؤه قرْءًا وقراءة وقرآنًا(٣).

وذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق، ولكنه اسم علم لكتاب الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ مثل التوراة والإنجيل(٤)، فهما غير مشتقين، فكان هو على شاكلتهما حسب هذا الرأي، ويأتي الإمام الشافعي على رأس هذا الفريق حيث يرى أن "القرآن ليس بمهموز ولم يؤخذ من قراءة ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل"(٥).

---

(١) نيل الخيرات في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، الشيخ عبد الحميد يوسف منصور، دار ابن خلدون، الإسكندرية ١٩٩٦، ص ١١ .

(٢) انظر : علم التجويد، دكتور محمد محمود عبد الله، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ٢٠٠١، ص ٤ ، ٥ .

(٣) انظر : لسان العرب، ج٥ /٣٥٦٣، مادة : قرأ.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، طبعة دار المعارف بمصر، ج٥ /٣٥٦٣، مادة : قرأ.

(٥) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨، ج١ /٦٨ .

والذي نميل إليه ونرجحه أن القرآن مشتق من الفعل قرأ لأسباب ظاهرة، هي:

أ – أن بناء لفظ القرآن من لفظ الفعل قرأ، أو قل: إن بناءهما من الحروف نفسها، وهو بناء ظاهر لا سبيل إلى رده ورد المعنى العام الذي تدل عليه حروفه، وأكثر من ذلك إشارة كتب اللغة ومنها المعاجم بخاصة إشارة صريحة إلى اشتقاق "قرآن" من "قرأ"(١) وتأكيد الدارسين لذلك(٢)".

ب – تلازم ورود اللفظين (قرآن وقرأ) معا في أكثر من مرة في آيات الذكر الحكيم، من ذلك: قال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقال ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: ١٨] أو تلازم أحدهما بمعنى الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

جـ – أن من أهم سبل التعريف بالقرآن والتمكين للدين الجديد قراءة القرآن وهو ما تشير إليه بصراحة الآية السابقة ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾، ومن ثم قيل: إن القرآن هو كتاب الله المقروء، في مقابل كتابه المنظور، وهو الكون.

د – أن من أهم مهام الدين الجديد الدعوة للقراءة، وهو أول تكليف بلّغ إلى صاحب الرسالة ﷺ في قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١، ٣] وما تلك القراءة إلا قراءة للقرآن كتاب الله الذي ختم به رسالاته.

وذهب فريق ثالث إلى أن القرآن مشتق من قرنت - بالنون بعد الراء - الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، سمي كذلك لأنه يضم السور إلى السور، والآيات إلى الآيات، والحروف إلى الحروف(٣). وفي لسان العرب: «وقرأت الشيءَ قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض»(٤).

---

(١) انظر مثلا: لسان العرب ج٥/٣٥٦٣، مادة: قرأ.

(٢) انظر مثلا: دراسات في علوم القرآن، دكتور: محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ص ١٠.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن ج١/٦٨.

(٤) لسان العرب: ٥/٣٥٦٣ مادة «قرأ».

والذي لا بد من الإشارة إليه هنا ـ حسب ما نعلم ـ أن الذي يدل على معنى ضم الشيء إلى الشيء من ذلك يكون بكسر القاف من "قران" وهو ما لم تشر إليه تلك الآراء مما اطلعنا عليه، من ذلك قولهم في الجمع بين الحج والعمرة : قران[١] . فليس فيه ما دل على معنى الجمع وكان مفتوح القاف، غير أن العامة ربما نطقته مضموم القاف مفتوح النون غير مهموز، وهو مع ذلك دال على مصدر "قرأ"، وإسقاط الهمز فيه هو من باب التسهيل والتخفيف لا غير، وهو ما أشار إليه الزجاج[٢] .

وذهب الفراء إلى أن القرآن "مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن"[٣] وهو قول اعتبره الزجاج سَهْوًا[٤].

وقد رجح الزجاج أن يكون القرآن مشتقا من القرء : بمعنى الجمع، وهو رأي أبي عبيدة أيضا[٥] والراغب الأصفهاني الذي يرى أنه "إنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة"[٦]. أو لجمعه ثمرة جميع العلوم[٧] ، وهو ما يُشير إليه قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل : ٨٩] و﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام : ٣٨].

وهذا الرأي الأخير ـ مع ما فيه من تخريج حسن ـ لا يرقى إلى درجة من قال باشتقاقه من القراءة لما ذكرناه من أسباب ظاهرة أولا، ثم هو ـ ثانيا ـ الرأي الغالب عند القدماء والمحدثين؛ قال قطرب (محمد بن المستنير) : "إنه سمي قرآنا لأن القارئ يظهره ويبينه من فيه"[٨]. وقال قوم: "هو مصدر لقرأت كالرُّجْحَان والغُفْران، سُميَ به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر"[٩] .

---

(١) انظر : لسان العرب، ج٥ / ٣٦١٠، مادة : قرن.
(٢، ٣، ٤، ٥، ٦) انظر : الإتقان في علوم القرآن ج١ / ٦٨ .
(٧) مباحث في علوم القرآن. مناع القطان، مكتبة وهبة، ص١٥ .
(٨، ٩) الإتقان في علوم القرآن، ج١ / ٦٨ .

ومهما يكن من أمر، فإن اشتقاق لفظ "القرآن" من الفعل "قرأ" هو الأرجح الغالب المأخوذ به؛ قال الزرقاني (محمد عبد العظيم) : "أما القول بأنه وصف من القرء - بسكون الراء - بمعنى الجمع، فهو قول ليس براجح، وكذلك قول من قال إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، أو إنه مرتجل، أي موضوع من أول الأمر عَلَمًا على الكلام المعجز المنزل، فكل ذلك لا يظهر له وجه وجيه، ولا يخلو توجيه بعضه من كلفة، ولا من بُعْدٍ عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة"(١) .

وأورد الزركشي (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله) قول بعضهم : "لا يكون القرآن و"قرأ" مادته بمعنى جمع لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧] فغاير بينهما، وإنما مادته "قرأ" بمعنى أظهر وبيّن، والقارئ يُظهر القرآن ويُخرجه..."(٢) .

٢ – أما في **الاصطلاح** فالمشهور أن الأصوليين والفقهاء وعلماء اللغة العربية يطلقون «القرآن» على : كلام الله تعالى المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله القرشي ﷺ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، المنقول بالتواتر والمحفوظ في الصدور والمسطور في المصاحف، والمتعبد بتلاوته، والذي أوله سورة الفاتحة وآخره سورة الناس...

غير أن بعضهم فضل أن يحيط في تعريفه بجميع ما اختص به القرآن من خصائص مميّزة له عن غيره من الكتب المنزلة وغير المنزلة وذلك كاختصاصه بالإعجاز والتنزيل على الرسول ﷺ والكتابة في المصاحف والتواتر في النقل والتعبد به... إلخ. وفضل بعضهم التوسط فذكر له بعض الخصائص ولم يذكر أخرى، وذلك كذكر إنزال

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني ج١ / ١٤ . طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي. تحقيق : محمد أبو فضل إبراهيم، المكتبة العصرية: صيدا - بيروت - ج١ / ٢٧٧ .

ألفاظه وكتابتها في المصاحف ونقله بالتواتر. واختصر بعضهم في تعريفه فاكتفى بذكر خاصية كالإعجاز أو خاصيتيْن كالكتابة في المصاحف والنقل بالتواتر(١).

وللمتكلمين صفات يُلحقونها بخصائص القرآن السالفة الذكر، منها(٢):

١ – أنه مجرّد عن الحروف اللفظية والذهنية لأنه غير مخلوق.

٢ – أنه أزلي لأن كلماته تحمل معنى القدم.

٣ – أن كلماته غير متعاقبة لأن التعاقب يستلزم الزمان، والزمان حادث، فهي مترتبة كما تكون الصورة مترتبة في المرآة غير متعاقبة.

ثانيا : اختلافه عن الحديث القدسي والمصحف

نحسب أن إعجاز القرآن وتواتره، والتعبد به، وجعله في مصاحف مبدوءة بسورة الفاتحة ومختومة بسورة الناس حائل دون التباسه بالحديث القدسي الذي يخلو من هذه الخصائص، ولا يشتركان إلا في نسبة كل منهما إلى الله سبحانه وتعالى، غير أن القرآن نزل من عنده –سبحانه – بلفظه ومعناه، ونزل الحديث القدسي بمعناه دون لفظه(٣).

وطريقة الإشارة إلى القرآن الكريم تكون بعبارة "قال الله تعالى" وطريقة الإشارة إلى الحديث القدسي تكون بعبارة "قال رسول الله فيما يرويه عن الله عزوجل"(٤). و"القدسي" نسبة تدل على التعظيم والتنزيه والتطهير(٥).

ونحسب أيضا أن الفرق واضح وبيّن بيْن القرآن والمصحف لا يحتاج من ذي عقل إلى طول عناء، إذ أن القرآن هو "كلمات غيبية مجرة عن المواد"(٦)، وليس

---

(١) راجع ذلك في : مناهل العرفان: ص١٩ ، ٢٠ .

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص١٧ ، ١٨ .

(٣) انظر : دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ٢٣–٢٥ .

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن، ص٢٠ ، ٢١ .

(٥) راجع: مباحث في علوم القرآن، ص١٩ ، ٢٠ .

(٦) الجمع الصوتي الأول للقرآن، دكتور: لبيب السعيد، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٨، ص ٧٣ ، ٧٤ عن روح المعاني للألوسي، ج١ / ١١ .

كذلك المصحف الذي هو الجسم المادي الذي كُتب عليه القرآن، حال ذلك حال اللغة والكتابة، إذ الكتابة تمثيل للغة ـ وهي منطوقة ـ وليست هي إياها.

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن المقابلة بين القرآن والمصحف فيسمى أحدهما بالآخر هو استعمال الطاعنين على القرآن والظانين به ظن السوء خاصة منهم بعض المستشرقين الذين يسمون واحد المصاحف قرآنا وجمعها قرآنات، ذلك ما ذهب إليه المستشرق تيودور نولدكه (THEODOR NÔLDEKE) في كتابه: تاريخ القرآن[١].

ثالثا : من أسماء القرآن الكريم وخصائصه

أوردت كتب علوم القرآن أسماءه التي سمي بها، فلا يكاد كتاب يخلو من ذلك بشكل مفصل أو غير مفصل، ولعل ما ذكره الإمام الزركشي في كتابه "البرهان[٢]" وما ذكره الحافظ السيوطي في كتابه "الإتقان[٣]" من أشمل ما ذكر في ذلك، وقد ذكر في الإتقان "أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما[٤]". وهذه أهم تلك الأسماء :

١ ـ الكتاب : مصدر من كَتَبَ بمعنى الضم أو الجمع، أي ضم الحروف بعضها إلى بعض في الخط، وهو بذلك يكون موافقا للفظ "القرآن" في المعنى حسب رأي الزجاج ومن ذهب مذهبه من أن لفظ القرآن مشتق من "القرء[٥]" بمعنى الجمع[٦]، قال السيوطي : "والكتاب لغة : الجمع[٧]" وقال الزركشي إنما سمي كتابا "لأنه يجمع أنواعا من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة[٨]".

---

(١) انظر : الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص ٧٦ .

(٢) انظر البرهان ج١ / ٢٧٣ ـ ٢٨٢ .

(٣) انظر الإتقان ج١ / ٦٧ ـ ٦٩ .

(٤) الإتقان ١ / ٦٧، والبرهان ج/ ٢٧٣، وفيه أن الحرالي صنف في ذلك جزءا وأنهى أساميه إلى نيّف وتسعين.

(٥) في البرهان ج١ / ٢٧٧ : القري بالياء.

(٦) انظر : دراسات في علوم القرآن، ص ٢١ .

(٧) الإتقان ج١ / ٦٧ .

(٨) البرهان ج١ / ٢٧٦ .

٢ ـ التنزيل : مصدر من نزَّل ـ بتضعيف الزاي، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، سمي كذلك "لأنه منزّل من عند الله على لسان جبريل(١)".

٣ ـ الفرقان : سمي كذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، وهو ما ذكره السيوطي فيما نقله عن مجاهد وغيره(٢)، وقال الزركشي إنما سمي كذلك "لأنه فرّق بين الحق والباطل، والمسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، وبه سمي عمر بن الخطاب الفارق(٣)".

٤ ـ الذكر : قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وقال : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

والذكر مصدر من ذكرت ذكراً، سمي به القرآن لما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية(٤).

وهذه الأسماء التي ذكرناها هي أشهر أسماء القرآن الكريم، وقد عقد الزركشي والسيوطي في كتابيهما ـ كما سلفت الإشارة ـ قائمة كبيرة بذلك وأكثر ما ذكرا منها ـ إن لم يكن كله ـ أوصاف للقرآن الكريم غلبت عليه فسمي بها كما سُمي الله تعالى بأسمائه الحسنى، من ذلك غير ما ذكرنا : الوحي، والبيان، والعلم، والعروة الوثقى، والبلاغ، والصراط المستقيم، والهدى، والنور، والحبل، والفصل...(٥).

ولا يختلف اثنان في أنه قد غلب تسميته "قرآنا" و"كتابا" «وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد»(٦) وذلك موضوع نفصل الحديث فيه في الفصل الثاني من هذا البحث.

---

(١) البرهان ج١ / ٢٧٦ .
(٢) انظر : الإتقان ج١ / ٦٨ .
(٣) البرهان ج١ / ٢٨٠، ومعلوم أن عمر بن الخطاب سمي "الفاروق" على وزن "فاعول" مبالغة في "فاعل".
(٤) انظر : البرهان ج١ / ٢٧٩، والإتقان ج١ / ٦٨ .
(٥) انظر ذلك بشكل مفصل في : البرهان ج١ / ٢٧٣، وما بعدها.
(٦) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص١٧ .

هذا، ويرى الجاحظ أن الله سبحانه سمى القرآن بأسماء مخالفة لأسماء العرب في أشعارها، منزّلة على أمثلتها، فقد "سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعضَهُ سورةً كقصيدة، وبعضَها آيةً كالبيت، وآخرَها فاصلَة كقافية[1]"، ولا شك أن ذلك فعْلٌ طبيعي يتماشى مع ما أخبر به الله سبحانه وتعالى في قوله ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [يوسف: ٢] وقوله ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [الزخرف: ٣]، فمن عربيته جعله على أساليب العرب، فإن ذلك من "اللسان العربي المبين".

وقد أوجز الرسول ﷺ خصائص القرآن العظيم بقوله: "كتاب الله فيه نبأ مَنْ قبلكم، وخبر مَنْ بعدكم، وحُكْمُ ما بَيْنَكُم، وهو الفَصْلُ ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدي مِنْ غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن الرّدّ ولا تنقضي عجائبه[2]، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ**﴾ [الجن: ١، ٢]، مَنْ قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم[3]".

* * *

(١) الإتقان ج١/٦٧.

(٢) في كتاب: "إبراز المعاني من حرز الأماني" لأبي شامة الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ) حديث رواه ابن مسعود نصه: "إن هذا القرآن حبل الله لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد." أي لا يحدث له البلي ناشئا عن كثرة ترداده وتكريره ومرور الزمان عليه، انظر طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٧٨، ص ١٣. والحديث أخرجه البيهقي.

(٣) هذا الحديث أخرجه الترمذي، انظر: القراءات المتواترة وأثرها في الرسم القرآني، دكتور: محمد الحبش، دار الفكر، دمشق، طبعة أولى ١٩٩٩، ص ٢٣، وفي رواية أخرى "إن القرآن لا يليه من جبار فيعمل بغيره إلا قصمه الله، ولا يبتغي علما سواه إلا أضله الله، ولا يخلَقُ عن ردّه، وهو الذي لا تفنى عجائبه، من يقل به صدق، ومن يحكم به يعدل، ومن يعمل به يؤجر، ومن يقسم به يقسط" انظر المرجع نفسه، ص ٢٤.

المبحث الثاني : القراءات

أولا : تعريفها

أ – في اللغة : القراءات في اللغة هي جمع قراءة، مصدر للفعل "قرأ"، تقول: قرأه يقرؤه قَرْءًا وقراءة وقرآنا[1] بمعنى : ألقاه أو لفظ به؛ في لسان العرب: "ومعنى قرأت القرآن : لفظت به مجموعا، أي ألقيته[2]". فالقراءة في الأصل ـ كما ترى ـ لا بد أن تكون أصواتا منطوقة ذات ذبذبات صوتية. وجاز استعمالها مجازا للدلالة على غير الملفوظ به، وهو ما يعرف على أيامنا هذه بالقراءة الصامتة، أي التي لا يسمع لها صوت، حالها حال صلاة السّر التي يعيها القلب ولا يبوح بها اللسان، فهي تكون في النفس، ومنه قيل : إن الكلام البشري نفسي ولفظي، فالنفسي هو المعاني التي تجول بالفؤاد دون أن تصرح بها الأصوات، واللفظي هو المسموع بواسطة الأصوات المعبرة عن تلك المعاني[3].

وقد وجهت العناية الكبرى عند الدارسين في الفقه الإسلامي وأصوله وكذلك في دراسات اللغة العربية إلى الكلام الملفوظ لعلتيْن :

الأولى : لأن المقروء الملفوظ هو الأصل.

والثانية : لأن الإعجاز ـ حسب رأيهم ـ طريقه الألفاظ.

وبناء على ذلك فقد انصرفت الأذهان عند إطلاقنا كلمة "قراءة" إلى ذلك اللفظ المصرح به من خلال تصويت دون غيره مما كان في النفس.

---

(١) انظر : لسان العرب ج٥/٣٥٦٣، مادة "قرأ".
(٢) ج٥/٣٥٦٣ .
(٣) انظر : دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ١١ .

اسم الفاعل منه "قارئ"، وجمعه قُرَّاء، وهو اسم خُصَّ به مجموع علماء القراءات.

ومن ملاحق القراءة "الإقراء" مصدر من المزيد بالهمزة (أقرأ) لإفادة التعدية، صاحبه "المقرئ" وجمعه مقرئون، وهم الذين يقومون بفعل الإقراء، أي تبليغ الشيء إلى غيرهم عن طريق اللفظ، ومنه قولهم : أقرأ فلان السلام، يعني : أبلغه السلام، ومن ذلك "المقارءة" بمعنى المدارسة، من الفعل " قارأ" المزيد بالألف لإفادة المشاركة ومن ذلك أيضا "الاستقراء" بمعنى : أن تطلب القراءة من غيرك(١).

ب ـ في الاصطلاح : القراءات في الاصطلاح هي علم يعرف به كيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها مع عزوّ كل وجه من ذلك لناقله(٢). وعرفها القسطلاني فقال : "علم القراءات علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب، والحذف والإثبات، والتحريك والإسكان، والفصل والاتصال، وغير ذلك من حقيقة النطق والإبدال من حيث السّماع(٣)".

وعرفها بعض المحدثين فقال : هي "النطق بألفاظ القرآن الكريم كما نطقها النبي أو كما نطقت أمامه فأقرّها(٤)".

فموضوعها ـ كما ترى ـ كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وذلك

---

(١) ينظر في ذلك كله : لسان العرب ج٥ / ٣٥٦٤، مادة قرأ.

(٢) انظر : منجد المقرئين، ابن الجزري، تحقيق : عبد الحي الفرماوي، القاهرة، طبعة أولى ١٩٧٧، ص ٦١، ونيل الخيرات في القراءات العشر المتواترة، الشيخ عبد الحميد يوسف منصور، دا ابن خلدون الإسكندرية ١٩٩٦، ص١٢ .

(٣) الاحتجاج للقراءات الشواذ (دكتوراه)، محمد عبد الحكيم بن سليمان رجب، جامعة الأزهر كلية اللغة العربية ١٩٨٩، ص ٥ عن : لطائف الإشارات للقسطلاني ج١ / ١٧٠ .

(٤) القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، دكتور : محمد أحمد الصغير، دار الفكر دمشق ١٩٩٩، ص ١٦ عن : القراءات القرآنية : تاريخ وتعريف، دكتور: عبد الهادي الفضلي، ص ٦٣، وانظر : المقتبس من اللهجات العربية والقرآنية، دكتور : محمد سالم محيسن، طبعة أولى، القاهرة ١٩٧٨، ص ٦٦ .

بغرض العصمة من الخطإ في كيفية أدائها، ومن ثم صيانتها عن التحريف والتغيير، وأيضا ليُعْلَمَ كُلُّ ما قرأ به كلُّ واحد من أئمة القراءة، والتمييز بين ما يَقْرَأُ به كلُّ واحد منهم وما لا يَقْرأُ به.

وواضعها ـ كما علمت ـ هم أئمة القراءة، ولكنه وضع رواية وتقليد لا وضع إبداع أو اختراع، فهو كما قال ابن الجزري : "إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد(١)" لأنها مستمدة من النقول الصحيحة المسندة أو المتواترة عن علماء القراءات الموصولة إلى رسول الله ﷺ (٢).

قال أبو عمرو الداني : "وأئمة القراءة لا تعمل بشيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقْيَسِ في العربية، بل على الأثبتِ في الأثر والأصَحِّ في النقل، والرواية إذا ثبتت لا يردها قياس عربية ولا فشوّ لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"(٣).

وكونها موضوعة وَضْعَ رواية وتقليد أمرٌ له أهمية خاصة بَوَّأَ القراءات منزلة عالية بين العلوم الشرعية والعلوم العربية لعلتين على الأقل، هما :

أ ـ تعلقها بأشرف كتاب سماوي منزّل هو القرآن الكريم.

ب ـ بلوغ سندها إلى رسول الله ﷺ.

وقد أدى شرف هذه القراءات وقُدْسِيَّتُها إلى اعتقاد بعض الدارسين ـ على مرّ العصور ـ أنه لا فرق بينها وبين القرآن، أو أنها هي جزء لا يتجزأ منه(٤)، وهم في ذلك يستندون إلى المعنى اللغوي لكل من القرآن والقراءات، إذ هما مصدران من الفعل

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتاب العلمية، بيروت لبنان ج١ / ٥٢

(٢، ٣) انظر النشر في القراءات العشر، ج١ / ١٠، ١١ .

(٤) انظر مثلا، الدكتور محمد سالم محيسن "في كتابه : في رحاب القرآن" حيث يرى أن القرآن والقراءات حقيقتان بمعنى واحد (ج١ / ٣٠٩)، وانظر هذا الرأي في: الاحتجاج للقراءات الشواذ، ص ٦، وانظر أيضا : القراءات الشاذة : ص ١٧ .

"قرأ" كما وضحنا ذلك فيما سبق، ثم هم يعتقدون أن القراءات (أو الأحرف) منزلة من عند الله هي أيضا لا خلاف عندهم بينها وبين القرآن في ذلك.

وقد حاول علماء المسلمين جاهدين تصحيح هذه النظرة، ولعل أبرز دعوة في ذلك كانت من الإمام الزركشي الذي قال بإبطال ذلك الرأي موضحا "أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور.. من تخفيف وتثقيل وغيرهما(١)".

إن عنصر المشافهة في القراءات القرآنية أساسيٌّ جدا، لا حديث عنها إلا به "لأن في القراءات أشياءً لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة(٢)".

وعنصر المشافهة هذا في القراءات القرآنية هو المعوَّلُ عليه، لا على غَيْرِهِ التَّعْوِيلُ، لأن غَيْرَهُ سواء كان مصحفا أم قياسا أم غير ذلك ممتنع الاستناد إليه في أمر القراءة، وهو ما نص عليه علماء القراءات، قال ابن الجزري : "امتنعت القراءة بالقياس المطلق، وهو الذي ليس له أصل في القراءة يُرجع إليه، ولا ركن وثيق في الأداء يعتمد عليه، كما روينا عن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما من الصحابة، وعن ابن المنكدر وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وعامر الشعبي من التابعين أنهم قالوا: "القراءة سُنّة يأخذها الآخر عن الأول، فاقرأوا كما علمتموه". ولذلك كان كثير من أئمة القراءة كنافع وأبي عمرو يقول : " لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرأت لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا(٣)".

---

(١) البرهان في علوم القرآن، ج١ /٣١٨، وانظر : القبس الجامع لقراءة نافع، عطية قابل نصر، دار الحرمين بالقاهرة، طبعة أولى ١٩٩٤، ص ١٠ .

(٢) منجد المقرئين، مرجع سابق، ص ٦١ .

(٣) النشر في القراءات العشر ج١ /١٧ .

ثانيا : أصحابها :

تُنسب القراءات ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى علماء أئمة اشتهروا بدقة الضبط، وصدق الرواية، وكمال الحفظ إلى جانب معرفتهم بشتى العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وغير ذلك[1].

أخذوا القرآن عرضا ومشافهة عن الصحابة والتابعين، وعُرِفُوا بالورع والتقوى وشدة التحقيق فكانوا أشهرَ من عَلَمٍ على نار إذ هُمُ القدوة وإليهم شُدَّتِ الرحال، أجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، وقد كانوا مُوَزَّعين في الأمصار الإسلامية، منهم:

* في المدينة المنورة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع ابن أبي نعيم.
* وفي مكة المكرمة: عبد الله بن أبي كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد ابن محيصن.
* وفي الكوفة : يحي بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، ثم حمزة بن حبيب الزيات، ثم الكسائي.
* وفي البصرة : عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ثم عاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.
* وفي الشام : عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله ابن المهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذرامي، ثم شريح بن زيد الحضرمي[2].

فهؤلاء وغيرهم اشتهروا في هذا الفن وسطع نجمهم، غير أن سبعة منهم اشتهروا أكثر من غيرهم لعلل نذكرها لاحقا، هؤلاء السّبعة هم :

---

(١) انظر شروط المقرئ، في: منجد المقرئين، ص ٦١ ـ ٧١ .
(٢) انظر : النشر، ج١/ ٨، ٩ .

نافع بن أبي نعيم، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم ابن أبي النجود، وحمزة، والكسائي، وعبد الله بن عامر.

وزاد من شهرة هؤلاء القراء أن كان لهم تلاميذ حاذقون صدوقون رووا[1] عنهم قراءاتهم بأمانة متناهية ونشروا قراءات أساتذتهم عبر طرق[2] شتى من خلال تلامذتهم هم أيضا.

عُرف أصحاب هذه القراءات بـ"القراء" و "المقرئين" من الفعل أقرأ يُقرئ المزيد بالهمزة لعلمهم أوّلاً بتلك القراءات ثم تعليمهم بعد ذلك إياها، ولكننا نفضل تسميتَهُم بالاسم الأول (قراء) لأنه خُصّ بهم دون سواهم ممن قرأ القرآن وأقرأه غَيْرَهُ سواء كان ذلك من الجيل الأول من الصحابة والتابعين أم كان من غيرهم ممن تابع التابعين إلى مَنْ هم على أيامنا هذه من حفظة القرآن الكريم المجوّدين له والمرتلين.

ثالثا : مصادرها

ولا بد أن هذه القراءات على اختلافها كانت لها مصادر لولاها ما عرفت ولا اعْتُرِفَ بها، ولا وُثِقَ من صحتها، ويمكن إيجاز ذلك في خمسة مصادر، هي[3]:

١ ـ حديث "أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه".

٢ ـ الاختلافات التي حدثت في عهد رسول الله ﷺ بين الصحابة، وسوف نذكر لاحقا جملة منها، وقد كان صلوات الله عليه حَكَمًا فيها.

٣ ـ الاختلافات التي حدثت بين الصحابة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكانت حاملا له على جمع المصحف الإمام، وسوف نفصل القول في ذلك لاحقا.

---

(١) الرواية، في علم القراءات، هي كل خلاف يُنسب إلى راو عن إمام.

(٢) الطريق هو الخلاف الذي يُنسب للأخذ من الراوي.

(٣) انظر هذه المصادر مفصلة في كتاب : القراءات واللهجات، عبد الوهاب حمودة، مطبعة السّعادة، مصر ١٩٤٨، ص ٥ .

٤ ـ الاختلافات التي رويت بين المصاحف العثمانية التي أرسلها عثمان إلى الآفاق، وقد وضح ذلك بشكل جلي كأثر من آثار القراءات.

٥ ـ الروايات التي رُوِيَتْ عن الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم، ونقلها ثقاة الأئمة، وتلقتها الأمة بالقبول.

كل ذلك ـ وقد يكون معه غيره ـ كان هو المنبع الذي أفرز لنا تلك القراءات التي عرفت واشتهرت بين العلماء والدارسين على مر العصور.

رابعا : أصولها وفرشها

وقد عرف لهذه القراءات أيضا "أصول" و"فرش"، إذ أن ذلك هو مدار كل كتاب تناول القراءات بالبحث، ولعل أصحابها قد سلكوا فيها مسلك علماء الفقه وأصوله فيما عرف عندهم من أصول وفروع، وما عند النحويين كذلك من أصول وفروع.

وقد حدد ابن الجزري أصول القراءات بنحو نيف وعشرين[1]، نذكر منها : المد، واللين، والقصر، والإشباع، والإدغام، والإظهار، والقلب، والتسهيل، والتثقيل، والفتح، والإمالة، والروم، والإشمام ... إلخ، وهي في مجموعها الكليات التي تضم جزئيات متماثلة والتي يفترض إمكانية قياس بعض منها على بعضها الآخر مما اتفق فيه بعض القراء واختلفوا، ولكن القياس في القراءات ـ مع ذلك ـ يبقى مُقَيَّداً فلا يُسمح به إلا في حالات نادرة حتى وإن تعلق الأمر بأصول ما دام أن القراءة سنة تتبع في أصولها وفرشها.

هذا ما نجده عند عامة علماء القراءات وأئمتها، فابن الجزري ـ مثلا ـ نجده متشددا في قياس فرع على أصل إلا إذا كان الموضع فيه غموض أداء ـ لاعتماد القراءات

---

(١) انظر ذلك في كتاب : التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، تحقيق : غانم قدوري حمد، مؤسسة الرسالة، القاهرة، طبعة أولى ١٩٨٦، ص ٦٧ وما بعدها.

على المشافهة ـ ويَعْوزُه نص صريح، فإنه حينذاك لا يمانع إذا حصل إجماع على القياس، قال : "أما إذا كان القياس على إجماع انعقد أو عن أصل يعتمد فيصير إليه عند عدم النص وغموض وجه الأداء فإنه مما يسوغ قبوله ولا ينبغي رده، لا سيما فيما تدعو إليه الضرورة وتمس الحاجة مما يقوي وجه الترجيح، ويعين على قوة التصحيح، بل قد لا يسمى ما كان كذلك قياسا على الوجه الاصطلاحي إذ هو في الحقيقة نسبة جزئي إلى كليّ كمثل ما اختير في تخفيف بعض الهمزات لبعض الأداء، وفي إثبات البسملة وعدمها لبعض القراء[1] ..." .

وهذا الرأي مع اشتراطاته الكثيرة المعقدة لم يقل به ابن الجزري إلا بعد معرفة أن هناك من قال به قبله من أئمة القراءة الأعلام السابقين عليه مثل مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) الذي قال بخصوص كتابه "التبصرة[2]" . « فجميع ما ذكرناه في هذا الكتاب ينقسم ثلاثة أقسام : قسم قرأت به ونقلته وهو منصوص في الكتب موجود، وقسم قرأت به وأخذته لفظا أو[3] سماعا، وهو غير موجود في الكتب، وقسم لم أقرأ به ولا وجدته في الكتب ولكن قسته على ما قرأت به إذ لا يمكن فيه إلا ذلك عند عدم الرواية في النقل والنص، وهو الأقلّ» .[4]

إن قياس هؤلاء العلماء من أمثال ابن الجزري، ومكي بن أبي طالب في القراءات هو قياس الضرورة القصوى (عند عدم الرواية أو النص) ومن ثم وجدت ابن الجزري يحمل حملة شنعاء على الذين "أطلقوا قياس ما لا يروى على ما رُوي، وما له وجه ضعيف على الوجه القوي كأخذ بعض الأغبياء ـ كما يصفهم ـ بإظهار الميم المقلوبة من النون والتنوين، وقطع بعض القراء بترقيق الراء الساكنة قبل الكسرة والياء، وإجازة

---

(١) النشر ج١ / ١٧ ، ١٨ .
(٢) التبصرة في القراءات، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، طبعة أولى ١٩٨٥
(٣) في الأصل : لفظا وسماعا (بواو بدل أو)، والتصحيح من : النشر ج١ / ١٨ .
(٤) التبصرة في القراءات، ص ٣٩٤ .

بعض من بلغنا عنه ـ كما يقول ـ ترقيق لام الجلالة[١] تبعا لترقيق الراء من (ذكر الله)[٢]" .

ويفضل عامة علماء القراءات عدم فتح باب القياس "لئلا يجسر على القول في القرآن بالرأي أهلُ الزيغ ... ومتى ما طمع أهل الزيغ في تغيير الحرف والحرفين غيّروا أكثر من ذلك. وعسى أن يتطاول الزمان كذلك فينشأ قوم فيقولون : لم يقرأ بعضهم هذا إلا وله أصل[٣]" .

ونتيجة لذلك فإن هذه الأصول لم تكن تنال الاهتمام الكبير في كتب القراءات القرآنية، إذ كان أكثر المصنفين يجعلونها مدخلا فقط لمعرفة الجزئيات المختلف فيها بين القراء[٤] أو يلحقونها بهذه الجزئيات فلا تكاد تُتميّز عنها[٥]، وقليل منهم من كان يهتم بها اهتمامه بفرش الحروف[٦]، وكثير منهم لم يخصها بحديث ولو كان موجزا[٧].

---

(١) لام الجلالة : يعني بها لام اسم الجلالة "الله" .

(٢) النشر ج ١ /١٨ .

(٣) القراءات واللهجات، مرجع سابق، ص ٦٠، والقول لابن مجاهد صاحب كتاب : السبعة في القراءات.

(٤) ذلك هو صنيع الأستاذ محمد الصالح قمحاوي في كتاب "طلائع البشر في توجيه القراءات العشر" طبع دار النصر، القاهرة، طبعة أولى ١٩٧٨، انظر ص ٥ ـ ١٩ .

(٥) انظر مثلا : ابن مجاهد في كتاب "السبعة في القراءات" طبعة دار المعارف بتحقيق الدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثالثة ١٩٨٨، ص ١٣٠ وما بعدها حيث عرض مباحث في أصول هي : هاء الكناية. والهمز؛ والمد، والإمالة والفتح مختلطة بما ورد في سورة البقرة من فرش الحروف، ولم يفرد منها بالبحث سوى الإدغام.

(٦) انظر مثلا ابن الجزري في كتاب "النشر" حيث خصها بحديث مطول، وكذلك فعل الشيخ محمد البيومي الدمنهوري في كتابه "الفتح الرباني في القراءات السبعة من طريق خرز الأماني" طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، طبعة أولى ١٩٩٧ .

(٧) ذلك هو صنيع أبي علي الفارسي في كتاب "الحجة في علل القراءات السبع: انظر الطبعة الثانية (١٩٨٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكذلك فعل أبو منصور الأزهري في كتاب "معاني القراءات" .

أما الفرش في اصطلاح علماء القراءات فهو الجزئيات التي يختلفون فيها والتي لا يحق لك أن تقيس عليها غيرها لشبه يكون قد بدا لك، ومثال ذلك كلمة "ملك" في سورة الفاتحة، التي يقرؤها عاصم والكسائي "مالك" بألف بعد الميم، ويقرؤها غيرهما بغير ألف، وكلمة "ملك" في سورة الناس التي قرأها جميعهم بغير ألف، فهذه لا يمكن قياسها على الأولى، فلا يجوز قراؤتها بألف بعد الميم، ذلك لأن كل حرف في الفرش إنما حالة قراءته هي حالة خاصة لا يخضع لها إلا هو، ومع ذلك فإن قيمته تبقى محفوظة له كقيمة القياس أو القاعدة اللغوية أو النحوية، يلزم المصير إليه واعتماده والتعويل عليه.

إن اختلاف القراءات في الفرش خاصة – هو اختلاف تَنَوُّع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض " فما ظهر أن قراءة اتخذت سبيلا استدبرته قراءة أو أنّ قراءة أمرت بما نهت عنه أخرى، ثم إن هذه القراءات بمنزلة سواء في الأسلوب والغاية (١) ".

ولا بد أيضا من أن نذكر أن الاختلاف في القراءات إنما هو اختلاف نقل ليس كاختلاف الفقهاء الذي هو اختلاف اجتهاد.

إذن لا بد من القول أن تقسيم القراءات إلى أصول وفروع هو تقسيم صوري نظري لم نجد له في الواقع إلا بعض الأمثلة أو الإشارات. ولعل الذي أدى إليه هو ما شاع عند علماء المسلمين ـ في القرنين الثالث والرابع على وجه الخصوص ـ من تأثر مناهج الدرس العربي بعضها ببعض، وغلب عندهم أن كل شيء لا بد فيه من أصل وفرع، ومن ثم فقد وجدت عند علماء القراءات مصطلح "الفرش" مقابلا لمصطلح "الفقه" عند علماء الفقه وأصوله، ومصطلح "الأصول" عندهم مقابلا لأصول الفريق الثاني، فالتأثر ظاهر ولكنه تأثر مظهري في جوهره، وذلك ما نجده عند علماء العربية حين اقتبسوا مصطلح "فقه" وأضافوا إليه كلمة "اللغة" فسموا علوم اللغة العربية "فقه اللغة" دون أن تنطوي تلك التسمية على إضافات مُميّزة أو متميزة.

---

(١) الجمع الصوتي الأول للقرآن، ص ١٣٠ .

خامسا : بدء التأليف فيها :

ولا بد من أن نشير في ختام هذا الفصل إلى أن هذه القراءات قد شُرع في تدوينها على رأس المائة الثانية للهجرة، إذ تذكر المصادر أن أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب هو أبو عبيد القاسم بن سلام[1] (ت ٢٢٤ هـ) وجعلهم خمسة وعشرين قارئا، ثم تابعه أحمد بن جبير الكوفي (ت٢٥٨ هـ) فاقتصر منهم على خمسة من كل مصر واحد، ثم القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون (ت ٢٨٢ هـ) فذكر منهم عشرين إماما، ثم الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) الذي ألف كتابا سماه "الجامع"، جمع فيه نيفا وعشرين منهم، ثم الإمام أبو بكر محمد الداجوني (ت٣٢٤ هـ) الذي جمع كتابا أدخل فيه أبا جعفر ابن القعقاع أحد العشرة الذين اشتهروا، ثم كان الإمام أبو بكر أحمد بن موسى ابن العباس بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) أول من سبع السبعة، وقد قام الناس في زمانه وبعده فألفوا في القراءات كتبا كثيرة يضيق المقام ههنا لذكرها[2].

وهكذا صارت القراءات ـ كما يقول ابن خلدون "ـصناعة مخصوصة، وعلما منفردا، وتناقله الناس بالشرق والأندلس في جيل بعد جيل[3] ...".

وإلى هذا الحد تكون قد تحددت لنا معالم مميزة للقراءات سواء ما تعلق بتعريفها أو طبيعتها المتمثلة في الرواية والمشافهة، أو أعلامها الذين نسبت إليهم، أو مصادرها التي لولاها ما عرفت هي، أو أصولها وفرشها وهو جوهرها الذي تولته الأقلام بالتحبير والإيضاح.

---

(١) تشير بعض الدراسات إلى أن بدء التأليف في القراءات يعود إلى سنة ٩٠ هجرية على يدي يحيى بن يعمر، وأن أبا حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) كان من أوائل من ألف في القراءات، وكان بعد أبي عبيد القاسم بن سلام. انظر : تاريخ توثيق نص القرآن الكريم، خالد عبدالرحمن العك، دار الفكر، دمشق، طبعة ثانية ١٩٨٦، ص ٨٦ .

(٢) انظر : النشر في القراءات العشر ج١ / ٣٤، ٣٥، وإبراز المعاني من حرز الأماني، ص ٢٢، ٢٥ والجمع الصوتي الأول للقرآن، ص ١٣٦ وما بعدها.

(٣) مقدمة ابن خلدون، طبعة دار نهضة مصر،تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي. ج٣/ ١٠٢٨ .

وقد علمت أيضا أنها تختلف عن القرآنُ وإن كانت منه خرجت وإليه عادت فهي لا وجود لها إلا به ولا حديث فيها إلا عنه.

ولا شك أن النص القرآني قبل أن تصل قراءاته إلى ماوصلت إليه فدوّنت في مؤلفات قد مر بمراحل توثيقية حاسمة ومهمة كانت لها آثارها الخطيرة في حياة القرآن والقراءات، فكيف كان ذلك؟ ذلك هو مدار بحثنا في الفصل الثاني.